الباب الأول

فى ذكر وضع مكة المشرفة شرفها الله تعالى وحكم بيع دورها وإجارتها وحكم المجاورة فيها[١]

اعلم أن بلد الله الحرام مكّة المشرفة زادها الله تعالى شرفًا وتعظيمًا بلدة كبيرة مستطيلة ذات شعاب واسعة ولها مَبْدأ ونهايتان، فَمَبْدأُها المَعْلاةُ وهى المقبرة الشريفة ومنتهاها من جانب جُدَّةَ موضع يقال له الشُّبَيْكة ومن جانب اليمن قرب مولد سيّدنا حَمْزة ـ رضى الله عنه ـ فى لصق مجرى العين ينزل إليه من درج يقال له بازان، وعرضها من وجه جبل يقال له الآن جبل جِزّل إلى أكثر من نصف جبل أبى قُبَيْس، ويقال لهذَيْن الجبلين الأخْشَبان.

وسمّاهما الأزرقى: جبل أبى قبيس، والجبل الأحْمَر، فإنه قال: أخْشَبَا مكَّة أبو قُبَيْس وهو الجبل المشرف على الصَّفا والآخر الجبل الذى يقال له الأحْمَر وكان يُسَمَّى فى الجاهلية الأعْرَف، وهو الجبل المشرف على قُعَيْقِعان، وعلى دُور عبد الله بن الزُّبَيْر[٢]. انتهى.

فيكون قُعَيْقِعان ممّا يشرف عليه الجبل المقابل لأبى قُبَيْس.

وقال ياقوت فى مُعْجَم البُلْدان: قُعَيْقعان: جبل مشرف على مكة وجهه إلى أبى قبيس[٣]. انتهى.

فيكون قعيقعان هو نفس الجبل، وإنما سُمّى الآن جبل جِزَلّ، بكسر الجيم وفتح الزاى وتشديد اللام أنّ طائفة من الحبوش يقيمون بهذا الجبل يُسَمّون بهذا الاسم يلعبون فيه بالطَّبْل.

وأما موضع الكعبة المعظمة فهو فى وسط المسجد الحرام، والمسجد الحرام

(١) انظر فى ذلك: الزهور المقتطفة ص١٩ وما بعدها.

(٢) أخبار مكة للأزرقى ٢/ ٢٦٧.

(٣) معجم البلدان ٤/ ٣٧٩.

بين هذين الجبلين فى وسط مكة، ولها شعاب كثيرة مُزْوَرَّة إذا أشرف الإنسان من جبل أبى قبيس لا يرى جميع مكة بل يرى أكثرها، وهى تَسَعُ خلْقًا كثيرًا خصوصًا فى أيام الحجّ فإنه يَرِدُ إليها قوافل عظيمة من مصر والشام وحلب وبغداد والبصرة والحسا ونجد واليمن ومن بحر الهند والحبشة والشحر وحضرموت وعُرْبان جزيرة العرب وطوائف لا يحصيهم إلا الله تعالى، فتسَعهُم جميعهم وأفْنيتها وجبالها ووِهَادها.

وهى تزيد عمارتها وتنقص بحسب الأزمان وبحسب الولاة والأمن والخوف والغَلاء والرَّخاء.

وهى الآن بحمد الله تعالى فى دولة السلطان الأعظم الفيّاض الأكرم، معمّر هذا العالم بالعدل والفضل والكرم، السلطان مُرَاد خان خلّد الله مُلْكه، وجعل بساط البسيطة ملْكه، فى أعلى درجات العمارة والأمن والرخاء، بحيث ما رأينا منذ أوّل العُمر إلى الآن هذه العمارة ولا قريبًا منها.

وكنتُ أشاهد قبل الآن فى سن الصبا خُلُوَّ الحرم الشريف وخلوَّ المطاف من الطائفين حتى أنى أدركت الطواف وَحْدى من غير أن يكون معى أحدٌ مرارًا كثيرة كنتُ أترصده خليًا لكثرة الثواب بأن يكون الشخص الواحد يقوم بتلك العبادة وحده فى جميع الدنيا، وهذا لا يكون إلا بالنسبة إلى الإنسان فقط، وأما الملائكة فلا يخلو عنهم المطاف الشريف، بل يمكن أن لا يخلو عن أولياء الله تعالى ممن لا تظهر صورته ويطوف خافيًا عن أعين الناس، ولكن لما كان ذلك خلاف الظاهر صار يثابر على أداء هذه العبادة بالانفراد ظاهرًا كثير من الصلحاء لأنه ليس معنى عبادة يمكن أن ينفرد بها رجل واحد فى جميع الدنيا ولا يشاركه غيره فى تلك العبادة بعينها إلاّ الطَّواف، فإنه يمكن أن ينفرد به شخص واحد بحسب الظاهر، والله تعالى أعلم بالسرائر.

حتى حكى لى والدى رحمه الله تعالى أن وليًا من أولياء الله تعالى رَصَدَ الطواف الشريف أربعين عامًا ليلاً ونهارًا ليفوز بالطواف وحده، فرأى بعد هذه المدّة خلوّ المطاف الشريف، فتقدّم ليشرع وإذا بحيّة تشاركه فى ذلك

الطواف، فقال لها: ما أنت من خلق الله تعالى؟ فقالت: إنى أَرْصُدُ ما رَصَدْتَه قبلك بمائة عام، فقال لها: حيث كنت أنت من غير البشر فإنى فُزْتُ بالانفراد بهذه العبادة من بين البشر وأنتم طوافه.

وحكى لى شيخ معمّر من أهل مكة أنه شاهد الظباء تنزل من جبل أبى قبيس إلى الصفا وتدخل من باب الصفا إلى المسجد ثم تعود لخلو المسجد من الناس وهو صدوق عندى.

وكُنَّا نَرَى سوق المَسْعَى وقت الضحى خاليًا عن الباعة، وكُنَّا نرى القوافل تأتى بالحنطة من بُجَيْلَةَ فلا يجد أهلُها من يشترى منهم جميع ما جلبوه، فكانوا يبيعون ما جاءوا به بالأَجَل اضطراراً ليعودوا بعد ذلك ويأخذوا أثمان ما باعوه وكانت الأَسْعار رخية جدًا لقلة الناس وعزة الدراهم.

وأما الآن فالناس كثيرون والرزق واسع والخير كثير والخلق مطمئنون آمنون فى ظلال السلطنة الشريفة خائضون فى بحر إنعامها وإحسانها ونعمته الوريفة أدام الله تعالى سلطنته الزاهرة، وأطال عمره الشريف، وخلد دولته القاهرة، وخلافته الباهرة.

ومكة شرفها الله تعالى تُحيط بها جبال لا تسلك إليها الخَيْل والإبل والأحمال إلا من ثلاثة مواضع: أحدها من جهة المَعْلاة، والثانية من جهة الشُبَيْكة، والثالثة المَسْفَلة.

وأما الجبال المحيطة بها فيسلك من بعض شعابها الرجال على أقدامهم لا الخيل والجمال والأحمال.

وكانت مكة فى قديم الزمان مسوّرة فجهة المَعْلاَة كان بها جدار عريض من طرف جبل عبد الله بن عمر إلى الجبل المقابل له، وكان فيه باب من خشب مصفّح بالحديد أهداه ملك الهند إلى صاحب مكة، وقد أدركنا منها قطعة جدار كان فيه ثقوب للسيل قصير دون القامة وهو على سمت قطعة جدر بنى إلى جانب سبيل على مجْرى دبل عين حُنَيْن، بناه المرحوم مصطفى ناظر الدين باسم المرحوم المقدس السلطان سُلَيْمان خان سقاه الله ماء الكوثر

والسَّلْسَبيل فى يوم العطش الأكبر يوم الميزان.

وجعل علو السبيل منظرة فيها شبابيك من الجهات الأربع يتنزّه الناس فيها وذلك باقٍ إلى هذا اليوم، وتهدَّمَ ما عداه.

وكان فى جهة الشُّبَيْكة أيضًا سور ما بين جبلَيْن متقاربين بينهما الطريق السالك إلى خارج مكة وكان ذلك السور فيه بابان بعقدَيْن أدركنا أحدَ العقدَين يدخل منه الجمال والأحمال ثم تهدَّمَ شيئًا فشيئًا إلى أن لم يبق منه شىءٌ الآن، ولم يبق منه إلا فجٌ بين جبلين متقاربين فيه المدخل والمخرج.

وكان سور فى جهة المَسْفَلة فى درب اليمن لم ندركه ولم ندرك آثاره.

وذكر التقى الفاسى نقلاً عمّن تقدم أنه كان لمكّة سور من أعلاها دون السور الذى تقدّم ذكره قريبًا من المسجد المعروف بمسجد الراية، وأنه كان من الجبل الذى إلى جهة القرارة ويقال له لَعْلَع إلى الجبل المقابل الذى إلى جهة سوق الليل قال: وفى الجبل آثار تدلُّ على اتصال السور بها[1]. انتهى.

ولم يبق الآن شىء من آثار هذا السور الثانى مُطْلَقًا، ولعلّ دُور مكة كانت تنتهى إلى هذا الموضع حيث وضع عليه السور، ثم اتّصل العُمْران إلى أن احتيج إلى سور المَعلاة.

قال الفاكهى رحمه الله: ومن آثار النبى ﷺ مسجد بأعلى مكة يقال: إن النبى ﷺ صلَّى فيه عند بئر جُبَيْر بن مُطْعِم بن عدى بن نَوْفل، وكان الناس لا يتجاوزون فى السُّكْنى فى قديم الدهر هذه البئر، وما فوق ذلك خال من الناس، وفى ذلك يقول عُمر بن أبى ربيعة:

نزلتْ بمكـــة من قبائل نَوْفَل ونَزَلْتُ خلف البئر أبعـد مَنْزِلِ
حَــذَرًا عليها من مقـالة كاشحٍ ذَرِب اللسان يقول ما لم يَفْعَلِ[2]

قلت: المسجد هذا هو مسجد الراية موجود يزار إلى الآن، يقال إن النبىّ ﷺ وضع رايتَه يوم فتح مكة فيه، والبئر موجودة الآن خلف المساجد، وقد

(١) شفاء الغرام ١/ ٢٥.

(٢) أخبار مكة للفاكهى ٤/ ١٩.

تجاوز العُمْران عن حدّ هذه البئر كثيرًا إلى صَوْب المَعْلاة.

وأمّا حُدُوث هذه الأَسْوار فقد قال التقى الفاسىّ رحمه الله: ما عَرَفْتُ متى أنشئتْ هذه الأسوار بمكّة ولا من أنشأها ولا من عمّرها، غيرُ أنه بلغنى أن الشريف أبا عزيز قَتَادة بن إدْرِيس الحَسَنى جدّ ساداتنا أشراف مكّة أدام الله عزهم وسعادتهم ، هو الذى عَمرها. قال: وأظنُّ أن فى دولته عُمّر السور الذى بأعلى مكة، وفى دولته سهلت العقبة التى بُنى عليها سور باب الشُّبَيْكة، وذلك من جهة المظفَّر صاحب إرْبل فى سنة سبع وستمائة، ولعلّه الذى بَنَى السورَ الذى بأعلى مكة، والله أعلم[1].

قال: ورأيت فى بعض التواريخ ما يقتضى أنه كان لمكّة سورٌ فى زمن المقتدر العبّاسى، وما عرفتُ هل هو هذا السور الذى هو بأعلى مكة وأسفلها أو من إحدى الجهتين[2]؟

قال: وطول مكة من باب المعلاة إلى باب الماجن يعنى درب اليمن بالمسفلة موضع السور الذى كان موجودًا فى زمانه طَريق المُدَّعَى والمَسْعَى ومسيل وادى إبراهيم والسوق الذى يقال له الآن سوق الصغير، مع ما فيه من دورات ولفتات ليست على الاستقامة أربعة آلاف ذراع واثنان وسبعون ذراعًا، بتقديم السين ـ بذراع اليد[3]، وهو ينقص ثُمْن ذراع عن ذراع الحديد المستعمل الآن يعنى الذراع الشرعى.

وطول مكة من باب المَعْلاة إلى باب الشبيكة من طريق المُدَّعَى ثم يعدل عنه إلى سويقة ثم إلى الشبيكة أربعة آلاف ذراع ومائة ذراع واثنان وسبعون ذراعًا، بتقديم السين، بذراع اليد أيضًا[4]. انتهى.

وقال أيضًا: ذكر الزبير بن بكّار عن أبى سُفْيان بن أبى وداعة السَّهْمىّ أن

(١) شفاء الغرام ١/ ٢٦.

(٢) شفاء الغرام ١/ ٢٦.

(٣) شفاء الغرام ١/ ٢٦ ـ ٢٧.

(٤) شفاء الغرام ١/ ٢٧.

سعد بن عمرو السهمى أوّل من بنى بيتًا بمكّة، وأنشد فى ذلك شعرًا، منه قوله:

وأوّل من بَوّأ بمكّــة بيته وسوّر فيها ساكنًا بأثافى[١]

قال: وينبغى لمن بَنَى بمكّة بيتًا أن لا يرفع بناءه على بناء الكعبة الشريفة، فإن بعض الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ كان يأمر بهدمه[٢].

قال الأزرقى: وإنما سُمّيت الكعبة كعبة لأنه لا يُبْنَى بمكة بناء مرتفع عليها، ثم قال: حدّثنى جدّى، عن ابن عُيَيْنة، عن ابن شَيْبة الحجَبى، عن شيبة بن عثمان أنه كان يشرف فلا يرى بيتًا مشرفًا على الكعبة إلاّ أمر بهدمه، ثم قال: قال جدّى: لما بَنَى العبّاس بن محمّد بن على بن عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنه ـ داره التى بمكّة حيال المسجد الحرام، أمر قومه أن لا يرفعوها على الكعبة وأن يجعلوا أعلاها دون الكعبة لتكون دونها إعظامًا للكعبة، قال الأزرقى: قال جدّى: فلم يبق بمكّة دار لكبير أو غيره تشرف على الكعبة إلاّ هُدِمَت أو خربت إلاّ هذه الدار فإنها باقية إلى اليوم[٣]. انتهى.

وأمّا حُكْم بَيْع دُور مكة المشرفة فقد ذكر الإمام قاضى خان: أنه لا يجوز بَيْعُ دورها عند أبى حنيفة ـ رضى الله عنه ـ، فى ظاهر الرواية، وقيل: يجوز مع الكراهة، وهو قول محمّد وأبى يوسف رحمهما الله، قال صاحب الواقعات: وعليه الفتوى[٤].

وروى الحسن عن أبى حنيفة أن بيع دور مكة جائز وفيها الشفعة، وهو قول أبى يوسف وعليه الفتوى ذكره فى عيون المسائل.

قال قوام الدين فى شرح الهداية: بيع بناء مكة جائز اتفاقًا لأن بناءها ملك الذى بناه، ألا ترى أن من بنى فى أرض الوقف جاز أن يبيع بناءه فكذا هذا.

وأما بيع أرض مكة فلا يجوز عند أبى حنيفة وهو ظاهر الرواية عنه، وهو

(١) شفاء الغرام ١/ ٣٦.
(٢) شفاء الغرام ١/ ٣٦.
(٣) أخبار مكة للأزرقى ١/ ٢٨٢.
(٤) شفاء الغرام ١/ ٥٣.

قول محمّد، وعند أبى يوسف يجوز. ورجح الطَّحَاوى قول أبى يوسف، وقال: رأينا المسجد الحرام الذى كان للناس سواء العاكف فيه والباد لا ملك لأحد فيه، ورأينا مكة على غير ذلك فقد أُجيز البناء فيها، وقال رسول الله ﷺ يوم دخلها: «من دخل دار أبى سُفْيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن» فلمّا كانت ممّا يغلق عليه الأبواب وتُبنَى فيها المنازل كان صفتها صفة المواضع التى تجرى فيها الأملاك ويقع فيها التوارث، ولا يجوز احتجاج المخالف بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ [الحج:٢٥]، لأن المراد المسجد الحرام لا جميع أرض مكة. انتهى ملخصًا.

وأمّا إجارة دُور مكة فقد ذكر صاحب التقريب، قال: روى هشام، عن أبى حنيفة أنه كره إجارة بيوت مكة، وقال لهم: أن ينزلوا عليهم فى دورهم إذا كان فيها فَضْلٌ وإن لم يكن فلا وهو قول محمّد رحمه الله. انتهى.

وروى محمّد فى الآثار عن أبى حنيفة عن عبد الله بن زياد، عن ابن أبى نجيح، عن عبد الله بن عمر، عن النبى ﷺ أنه قال: «من أكل من أُجُور بيوت مكة شيئًا فكأنما أكل نارًا». أخرجه الدارقطنى بإسناد ضعيف، وقال: الصحيح أنه موقوف.

وروى أنه كره إجارتها لأهل الموسم ولم يكره للمقيم؛ لأن أهل الموسم لهم ضرورة إلى النزول والمقيم لا ضرورة له.

وعن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أنه نهى أن يُغْلَقَ بمكة بابٌ دون الحاج فإنهم ينزلون كلمّا رأوه فارغًا.

وكتب عمر بن عبد العزيز فى خلافته إلى أمير مكة أن لا يَدع أهل مكة يأخذون على بيوت مكة أجرًا فإنه لا يحل لهم، وكانوا يأخذون ذلك خفية ومساترة وهذا مَبْنِىٌّ على أَصْلٍ، وهو أن فتح مكة هل كان عنوةً فتكون مقسومة، ولم يقسمها النبى ﷺ وأقرّها على ذلك فتبقى على ذلك لا تباع ولا تكرى، ومن سبق إلى موضع فهو أولى به، وبهذا قال أبو حنيفة ومالك

والأوزاعى ـ رضى الله عنهم ـ، أو كان فتحها صُلْحًا فتبقى ديارُهم بأيديهم يتصرّفون فى أملاكهم كيف شاءوا سكنًا وإسكانًا وبيعًا وإجارة وغير ذلك، وبه قال الإمام الشافعى وأحمد ـ رضى الله عنهما ـ وطائفة من المجتهدين رحمهم الله، وعلى ذلك عمل الناس قديمًا وحديثًا[1].

وأمّا أسماء مكّة المشرفة فإنها سُمّيت بها لقلّة مائها من قولهم امتك الفصيل ما فى ضرع أُمّه إذا لم يبق فيها شيئًا، ولذلك تُسَمَّى المعطشة أو لأنها تنقص الذنوب أو تفنيها، ومن أسمائها بكّة لأنها تبك أعناق الجبابرة أى تكسرها، ومنها العَرُوض ـ بفتح المهملة ـ ولذلك سُمِّى علم عروض الشعر عَرُوضًا لأن الخليل بن أحمد اخترعه بمكّة فسماه باسمها.

والبلد الأمين، والبلد، والقرية، وأم القُرَى.

قال المحب الطبرىُّ: سَمَّى الله تعالى مكة بخمسة أسماء: مكة، وبكّة، والقَرْيَة، والبلد، وأُمّ القُرَى[2].

قال ابن عباس: سُمّيت أُمَّ القُرى لأنها أعظم القرى شأنًا، وقيل: لأن الأرض دحيتْ من تحتها.

ومن أسمائها: كُوثَى، وأُمُّ كوثى، لأن كوثى اسم لمحلّ من قُعَيْقعان، وفاران، والمقدسة، وقرية النمل لكثرة نملها والحاطمة لحطمها للجبابرة، والوادى، والحرم، والعرش، وبَرَّة، وصَلاَح مبنيًا على الكسر كحَذَامِ وقَطَامِ، ومن أسمائها: طيبة أيضًا، ومنها: مَعَاد بفتح الميم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥] لما فى الصحيحَيْن عن ابن عبّاس ـ رضى الله عنه ـ: ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال: إلى مكة.

ومن أسمائها: الباسّة بالباء الموحّدة والسين المهملة المشدّدة قاله مجاهد، لأنها تبسّ من ألْحَد فيها أى تهلكه لقوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة:٥]، وتُسَمَّى الناشّةَ أيضًا بالنون والشين المعجمة، أى تَنُشُّ بتشديد

(١) انظر فى أسماء مكة: شفاء الغرام ١/ ٧٥.

(٢) القرى لقاصد أم القرى ص ٦٥٠.

آخرها، أى تطرد من أَلْحَدَ فيها وتنفيه، ولها أسامى كثيرة غير ما ذكرناه، وللمَجْد الفيروزآبادى رسالة فى أسمائها.

قال الإمام النَّووى رحمه الله تعالى: لا يعرف فى البلاد بلدة أكثر أسماء من مكة والمدينة لكونهما أشرف الأرض، وقال عبد الله المرجانى رحمه الله فى تاريخه للمدينة بعد ذكره لأسماء مكة: ومن الخواص إذا كتب بدم الرعاف عن جبين المرعوف: مكة وسط الدنيا والله رءوف بالعباد، انقطع الدم.

وأمّا فَضْلُ مكّة شرفها الله تعالى، فاعلم أن مكة والمدينة زادهما الله تعالى شرفًا، وتعظيمًا أفضل بقاع الأرض، بالإجماع وذكر القاضى عياض أن موضع قبر نبيّنا ﷺ أى ما ضمّ أعضاءه الشريفة أفضل بقاع الأرض بالإجماع لحُلُول سيّد الأنبياء والمرسلين عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام وفيه قال البسكرى رحمه الله تعالى:

جَزَمَ الجميع بأن خير الأرض ما ... قد حاط ذات المصطفى وحواها
ونعم لقد صدقوا بساكنها علت ... كالنفس حين زكت زكى مَأْوَاها

ثم اختلف العلماء رحمهم الله فى أن مكة شرفها الله تعالى أفضل أم المدينة الشريفة عظّمها الله تعالى، فذهب الإمام الأعظم أبو حنيفة وأصحابه والإمام الشافعى وأصحابه والإمام أحمد بن حنبل وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ، إلى أن مكة أفضل من المدينة زادها الله تعالى شرفًا وتعظيمًا، لحديث عبد الله بن الزبير ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال: «صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة فى مسجدى». رواه أحمد وابن حبّان فى صحيحه.

ولا يرتاب فى الفضائل التى أثبتها الله تعالى لبلده الحرام فجعل فيها بيته المعظم الذى إذا قصده عباده حَطَّ عنهم أوزارهم ورفع درجاتهم وجعلها قبلة للمسلمين أَحْياءً وأَمْواتًا، وفرض الحج إليه على من استطاع إليه سبيلاً مرّة

فى عمره، وفى كل عام على الناس أجمعين فرض كفاية، وحرّمها يوم خلق السموات والأرض ولا تدخل إلا بإحرام وهو مَثوَى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ومَسْقط رأس خير الأنام عليه السلام ومحلُّ إقامته قبل النبوّة وبعدها ثلاثة عشر عامًا، ومحلُّ نزول أكثر القرآن، ومَهْبَطُ الوَحْى ومظهر الإيمان والإسلام، ومَنْشَأ الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين، وبها الحجر الأسود وزَمْزَم والمقام وغير ذلك من المزايا العظام ولقد قال القائل:

أرضٌ بهـا البيت المحرّم قبلة ... للعـالمين له المساجـد تعدلُ
حرمٌ حرام أرضها وصيودها ... والصيد فى كلّ البلاد مُحَلَّلُ
وبهـا المشـاعر والمناسك كلّها ... وإلى فضيلتهـا البريَّةُ تَرْحَلُ
وبها المقـام وحوض زمزم ترعا ... والحجر والركن والذى لا يرحَلُ
والمسجـد العالى المحرّم والصَّفَا ... والمشعران لمن يطوف ويرمَلُ
وبمكـة الحسنات ضوعف أجرُها ... وبهـا المسىء عن الخطـايا يغسل

وقال الإمام مالك ـ رضى الله عنه ـ: المدينة أفضل من مكة لما روى أن النبى ﷺ قال حين خروجه من مكة إلى المدينة: «اللهم إنك تعلم أنهم أخرجونى من أحب البلاد إلىَّ فأسكنى أحبَّ البلاد إليك». رواه الحاكم فى المستدرك، وما هو أحبُّ البلاد إلى الله ليكون أفضل، والظاهر استجابة دُعَائه ﷺ، وقد أسكنه الله تعالى المدينة الشريفة فتكون أفضل البقاع، وله أدلَّةٌ أخرى من الأحاديث الشريفة وبين الطائفتَيْن نِزَاعٌ ومشاحنات والله تعالى أعلم بالصواب.

وأما حُكْمُ المجاورة بمكة شرفها الله تعالى، فذهب إمامنا الأعظم أبو حنيفة ـ رضى الله عنه ـ وبعض أصحاب الإمام الشافعى وجماعة من المحتاطين فى دين الله رضوان الله عليهم أجمعين، كراهة المقام بمكة وذلك لخوف سقوط حُرمة البيت الشريف فى نظره وقلة الاحترام بالأنس والتبسُّط إلى أن يذهب من قلبه الاحترام والهيبة بالكليّة[1]، فيصير بيت الله تعالى فى

(١) القرى ص٦٦١.

نظره القاصر كسائر البيوت والعياذ بالله تعالى، أو تنقص الهيبة والحرمة الأولى فى نظره كما هو شأن سائر الناس فى الأكثر إلا من عَصَمَه الله تعالى، وحيث كان هو الأكثر من حكم الناس أنيط به حُكم الكراهة، فإقامة المُسْلِم فى وَطَنه وهو مشتاق إلى مكة باق حرمتها فى نظره خيرٌ له وأسلم من مقامه بمكة من غير احترام لها أو مع نقصان احترامه، هذا مَلحظ[1] إمامنا الشافعى ـ رضى الله عنه ـ، ولهذا كان عمر ـ رضى الله عنه ـ يدور على الحاج بعد قضاء النسك بالدِّرَّة ويقول: يا أهل اليمن يمنكم، ويا أهل الشام شامكم، ويا أهل العراق عراقكم، فإنه أبقى لحرمة بيت ربكم فى قلوبكم.

وقال أبو عمرو الزَّجَّاجى: من جاور بالحرم وقلبه متعلق بشىء سوى الله فقد ظهر خُسْرانه[2].

وقال بعض السلف: كم من رَجُل بخُراسان وهو أقرب إلى هذا البيت ممّن يطوف به كما قيل:

وكم من بعيـد الدار نال مراده وكم من قريب الدار مات كئيبا

وقال ابن مسعود: ما من بلد يؤاخذ فيه بالهمّ قبل العمل إلا مكة وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥]، ولقد اختار حبر الأمة سيدنا عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ المقام بالطائف وحَوَاليه على مكة، وقال لأَنْ أذنب سبعين ذنبًا بغير مكة أحبُّ إلىّ من أن أذنب ذنبًا واحدًا بمكة.

وذهب بعض العلماء إلى القول بتضاعف السيئات بأرض الحرم كما تتضاعف الحسنات، وجَاوَرَ أبو محمد الجريرى[3] سنة بمكة فلم يستند إلى حائط ولم ينَم فقيل له: بم قدرت على هذا؟ فقال: علم الله صدق باطنى على ظاهرى[4].

---

(١) فى ل: «ملخّص».

(٢) القرى ص٦٦١، شفاء الغرام ١/ ١١٦.

(٣) تحرف فى ل إلى: «الجوهرى» وصوابه من م، وتوضيح المشتبه ٢/ ٢٨١.

(٤) شفاء الغرام ١/ ١١٦.

وبقى أبو عمرو الزجاجى الصوفى أربعين سنة مجاورًا بمكة لم يقض حاجته البشرية فى الحرم بل كان يخرج إلى الحل عند قضاء الحاجة.

وهكذا يُرْوَى عن الإمام أبى حنيفة ـ رضى الله عنه ـ فى مدّة إقامته بمكة، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يحجّون ثم يرجعون ويعتمرون ثم يرجعون ولا يجاورون، ذكره عبد الرزاق فى مصنَّفه.

وروى عن وُهَيْب بن الورد المكّىّ رحمه الله، قال: كنت ذات ليلة أصلى فى الحجر فسمعتُ كلامًا بين الكعبة والأستار خفيًا فاستمعت فإذا هى تناجى وتقول إلى الله أشكو ثم إليك يا جبريل ممّن حولى ممّن سمرهم وتفكّههم باللغو وذكر أحوال الدنيا والاغتياب والخوض فيما لا ينبغى لهم واللَّهْو والعَبَث لَئِن لم ينتهوا عن ذلك لأنتفضنّ انتفاضة يرجع كلّ حجر منى إلى الجَبل الذى قُطع منه.

وسُئل الإمام مالك ـ رضى الله عنه ـ عن الحج والجوار أحبُّ إليك أو الحجّ والرجوع؟ فقال: ما كان الناس إلاّ على الحجّ والرجوع.

وفَهِمَ ابن رشد من هذا اقتضاء كراهة المجاورة عنده، والظاهر أنه لا يقتضيه والله تعالى أعلم.

وذهب الإمام الشافعى والإمام أبو يوسف ومحمّد والإمام أحمد بن حنبل ـ رضى الله عنهم ـ إلى استحباب المجاورة بها، وفى الملتقطات والمبسوط فى باب الاعتكاف، لا بأس بالمجاورة بمكة فى قولهما وأنه الأفضل قال: وعليه عمل الناس وحكى الفارسى فى منسكه عن المبسوط أن الفتوى على قولهما.

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «من صبر على حرّ مكة ساعة تباعدت النار عنه مسيرة مائة عام»[1].

وعن سعيد بن جُبَيْر من مرض يومًا بمكة كُتِبَ له من العمل الصالح الذى يعمله فى سبع سنين، فإن كان غريبًا ضوعف له ذلك. رواهما الإمام الفاكهى رحمه الله تعالى[2].

(١) أورده الفاكهى ٢/ ٣١١، وبهامشه: إسناده متروك.

(٢) أورده الفاكهى ٢/ ٣١٢، وبهامشه: إسناده متروك.

ومحصّل ما ذهب إليه أبو حنيفة ـ رضى الله عنه ـ من كراهة المجاورة مبنيٌّ على ضعف الخلق عن مراعاة حُرمة الحرم الشريف، وقصورهم عن الوَفَاء بقيام حقّ البيت الشريف، فمن أمكنه الاحترار عن ذلك وعرف من نفسه القدرة على الوفاء بحُرمة بيت الله تعالى وتعظيمه وتوقيره على وجه تبقى معه حرمة البيت الشريف وجلالته وهَيْبته وعظمته فى عينه وقلبه كما كان عند دخوله فى الحرم الشريف ومشاهدته بيت الله تعالى، فالإقامة بها هى الفضل العظيم والفوز الكبير، ولا شك فى تضاعف الحسنات بها.

وأما تضاعف السيئات فأكثر العلماء على عدم تضاعُفها.

ولا شك فى تردُّد سائر الأولياء إليها فى الأَوْقات الفاضلة، فمن لَمَحَ أحدهم أو لمحه هو نال السعادة العظمى، وورد أنهم يحضرون الجمعة والأوقات الشريفة ويحجون كل عام.

وكان دَأْب والدى رحمه الله تعالى قبل أن يكف نظره أن يبادر يوم النحر بعد رمى جمرة العقبة إلى مكة ويجلس فى الحطيم تجاه بيت الله تعالى ويلحظ الطائفين بنظره ويستمر جالسًا هناك إلى صلاة المغرب، فيطوف بعد صلاة المغرب ويَسْعَى ويعود إلى منى، وكان يقول: إن أولياء الله لا بُدَّ أن يحجّوا كل سنة ويفعلوا الأفضل، وهو الإتيان بطواف الزيارة فى أوّل يوم النحر فأُبَادِرُ إلى النزول من منى فى ذلك اليوم وأجلس فى الحطيم أُشاهد الطائفين لعل أن يقع نظرى على أحدهم أو يقع نظرُه علىَّ فتحصل لى بذلك بركتهم، واستمر على ذلك إلى أن كُفَّ بصَرُهُ رحمه الله، فكُنَّا نذهب به ونجلسه فى الحطيم ويقول: إن كنتُ لا أنظرهم فلعلّ أن يقع نظرهم علىَّ فتحصل لى بركتهم، واستمر على ذلك إلى أن توفى رحمه الله تعالى.

وإن أولياء الله يخفون أنفسهم عن أعين الناس فلا يَرَاهم إلاّ من أسعده الله تعالى، والله تعالى المسئول أن يجعلنا من سعداء الدنيا والآخرة بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى.

* * *